Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصاحب "أيها القاضى بِقُمْ، قد عزلناك فَقُمْ" فقد أراد المجانسة بين كلمة (قم) وهى اسم المدينة، وفعل الأمر قم، فلم يواتيه ذلك إلا على حساب المعنى؛ إذ صاغ معنى ليس مقصودًا ولا واقعيّاً؛ ولذلك قال القاضى "ما عزلنى إلا هذه السجعة" مشيرا إلى أن حاله لا تستدعى العزل، فليس ثمة خلاف بينه وبين الصاحب، ولا شكوى موجهة تجاهه من الرعيّة، ولكن العزل كان ناتجا من الحرص على التحسين اللفظى فحسب. والحق أن هذه الواقعة مما يتظرّف به فى كتب التراث، وفى فصول الفكاهة التى يتندَّر بها، وهى أدخل فى باب المضحك اللغوى.

على أن ما سبق لا يعنى أن القدماء كانوا يُقيّمون الإبداع بما له من مرجعية فى الواقع، فالمقامات العربية مثلاً تتكئ بشكل لافت على أحوال تقديريّة مفترضة ربما لا يكون لها صلة بالواقع، ومع ذلك فإن القدماء كانوا يأبهون بها وبالمجيدين من مبدعيها من أمثال الحريرى والهمذانى، اللذين أولعا بالتحسين اللفظى فوجدوا فى الكتابة وفق أحوال تقديرية حقلاً يُرحِّب بغرسهم التحسينى؛ إذ إن الكتابة على مقتضى الأحوال الواقعية ربما تحجِّم ذلك الميل حيث يكون الاختيار والتأليف الصياغى مرهونًا بالمعنى الواقعى المراد التعبير عنه، والذى يصير قيدًا على هاتين العمليتين.

وبهذا الإدراك للفرق بين الكتابة وفق أحوال واقعيّة والكتابة وفق أحوال تقديرية مفترضة علّل ابن يعقوب المغربى عجز الحريرى عن القيام بمهمته فى ديوان الإنشاء ذلك أنه "لما رتب الحريرى فى ديوان الإنشاء أى كلف إنشاء معان بألفاظ تطابق بتلك المعانى المدلولة مقتضى الحال وتكون مع ذلك مع بديعياتها عجز، وقد كانت له قوة وكمال فى إنشاء ألفاظ لمعان مع بديعياتها تناسب أحوال مقدّرة تجتلب كما أراد فقال فيه ابن الخشّاب حينئذ: "الحريرى رجل المقامات"، أى رجل له قدرة على المعانى المستحسنة المطابقة للتقدير لا المعانى المستحسنة المطابقة للواقع؛ لأن المقامات حكايات تقديريّة، فإذا رام إيجاد البديعيات مع المناسبة البلاغية تأتّت له بفرض المستحيلات وفرض ما لم يقع، وبين هذا وبين ما إذا أُمِرَ أن يكتب فى قضية عينيّة واقعة ما يناسبها بَوْنٌ بعيد، فإن هذا أخص، يلزم من القدرة عليه القدرة على الأول دون العكس؛ لأن الأول من كتابة ما يريد الإنسان ويخترعه وهو سهل التناول بالتجربة، والثانى